

الزيارة الأربعينية في كربلاء

ماذا يحصل عندما يجتمع أكثر من ستة ملايين زائر في مدينة صغيرة؟

< تحقيق وتصوير:
وليد عبد الأمير علوان

تعد مدينة كربلاء، من أكثر المدن الدينية الإسلامية، التي يؤمها الزوار سنويا، خصوصا في الزيارات الموسمية، والتي يربو عددها على عشر زيارات، معظمها يزيد زوارها على المليون، بعضها نهارية، والأخرى ليلية، إضافة إلى الزيارة الأسبوعية، والتي تسمى بـ"زيارة ليلة الجمعة"، حيث يدخلها بين 750 ألف إلى مليون زائر تلك الليلة، إلا أن أضخم الزيارات، وأكثرها استعدادا بالنسبة لأهل المدينة، والزائرين، هي الزيارة المسماة بـ(زيارة الأربعين)، والتي يصادف موعدها يوم العشرين من شهر صفر، من كل عام، حيث يدخل هذه المدينة الصغيرة، وعلى مدى أسبوع، أكثر من ستة ملايين زائر، من داخل وخارج العراق.

الجذور التاريخية للزيارة

تذكر المصادر التاريخية، أن الصحابي جابر بن عبد الله بن حزام الأنصاري، هو أول من زار قبر الحسين (ع)، في كربلاء، يرافقه مولاة عطية العوفي، وكان ذلك سنة (61هـ)، في الأربعين الأولى من بعد استشهاد سبط الرسول (ص)، فبعد وصوله إلى كربلاء، اغتسل من ماء الفرات، وتطيب، وأجّه إلى القبر، وقد رثى الحسين (ع) بكلام يثير الحزن والأسى، وصادف أثناء وجوده هناك، قدوم السبايا من عيال الحسين من الشام، حيث أنهم، وأثناء العودة، وقبل الذهاب إلى المدينة المنورة، عرجوا على كربلاء، لزيارة قبور الشهداء، من أهل البيت، وأصحاب الحسين، فالتقوا به هناك، وأخبروه بقصة ما جرى في يوم العاشر من الحرم، ومن هنا جاءت التسمية بزيارة الأربعين، أو الأربعينية، أي بعد أربعين يوم من استشهاد الحسين (ع)، وهي تصادف يوم العشرين من صفر من كل عام. ◀



Al-Abbas Shrine

ضريح العباس (رض)

مواكب العزاء

إن التقليد المتبع في تقديم العزاء، بمناسبة ذكرى أربعينية استشهد الإمام الحسين (ع)، وعودة السبايا من الشام، هو من خلال انتظام المعزين في مواكب العزاء، والتي تسير في المنطقة المجاورة لمنطقة الحرمین، حيث ترتفع حرارتها كلما اقتربوا من هذين الحرمین. وإن عملية استعراض هذه المواكب، والتي زاد عددها هذا العام على 1200 موكب للعزاء، يتم حسب المحافظات التي

من هذه المنطقة سيرا على الأقدام، حتى الوصول إلى المدينة المقدسة، لذلك فإن الزحام يكون على أشده في هذه المنطقة الصغيرة، حيث ينضم إليهم أولئك القادمين سيرا من مناطق بعيدة. أما من خارج العراق فيأتي الزوار عادة من إيران مشيا على الأقدام من الحدود وحتى مدينة النجف الاشراف حيث يؤدون زيارة مرقد الإمام علي (ع) وبعدها يستقلون سيارات توصلهم إلى المدينة المقدسة.

زيارة الأربعين اليوم

تختلف هذه الزيارة، عن بقية الزيارات، من ناحية طقوسها وتقاليدها، ولعل أول ميزة تميز هذه الزيارة عن غيرها، هي ظاهرة القدوم إلى المدينة المقدسة سيرا على الأقدام، من معظم محافظات العراق، حيث يكون أول الوافدين هم الزوار من جنوب العراق، وتحديدا من مدينة البصرة، حيث تستغرق رحلتهم لقطع مسافة 500كم، عشرة أيام، بمضونها سيرا في النهار، أما في الليل فيكون مبيتهم في المناطق التي يمرون عبرها، حيث يستعد أهالي هذه المناطق لاستقبال الآلاف من المشاة، عبر تهيئة أماكن للراحة، والمبيت، وتهيئة الطعام والشراب، حيث تفتح جميع البيوت أبوابها لاستقبال هؤلاء الزوار، وتهيئة الأدوية والعلاجات، وتقديمها من خلال مفازر طبية منتشرة على طول الطريق، حيث يكون الزائر بأمرس الحاجة إلى العلاجات الخاصة بعلاج التورم الذي يصيب القدمين بسبب المشي. إن هؤلاء الزوار يكونون عادة على معرفة بالمضيفين، حيث يستقبلونهم في كل عام، وبعد قضاء ليلة في أماكن الاستراحة هذه، يستأنفون السير، بحيث يكون وصولهم قبل يوم العشرين من صفر، وهو يوم الزيارة المحدد. أما المشاة القادمون من العاصمة بغداد، والمناطق المحيطة بها، فهم يغادرون العاصمة قبل ثلاثة إلى خمسة أيام، يمرّون خلال مناطق ملتتهبة هذه الأيام، وتكون آخر منطقة يأخذون بها قسطا من الراحة هي مدينة المسيب، والتي تبعد 65كم عن بغداد، و35كم عن كربلاء، حيث تستغرق الرحلة من هذه المنطقة إلى كربلاء، عدة ساعات حسب قابلية الشخص، وعادة ما يغادرونها بعد تأدية صلاة الفجر، حيث يصلون إلى المدينة المقدسة عصر ذلك اليوم أو مساءً، ولعل من المناظر المألوفة في هذه المسيرات الراجلة، هو مشاهدة معوقين يأتون على كراسي متحركة، أو مستعنين بعكازين، أو يحملهم بعض أصدقائهم أو ذويهم، أما بالنسبة للذين ليس لديهم القدرة على قطع هذه المسافة الطويلة، فإنهم يأتون بواسطة السيارات، حتى مقام "عون"، الذي يبعد مسافة عشرة كيلومترات عن مدينة كربلاء، حيث ينطلقون



Security check point

تفتيش الزوار من قبل الحرس الوطني



Noon prayer at Al-Hussein Mosque

صلاة الظهر في مسجد الحسين



Preparing food near Al-Abbas Shrine

إعداد الطعام في مضييف العباس



Mourning marches

مواكب عزاء



The return of Hussein's family

عودة سبايا أهل البيت

قدموا منها. حيث تكون أول هذه المواكب التي تبدأ المراسيم الخاصة بهذه الزيارة. هي مواكب مدينة البصرة باعتبارها المحافظة الأبعد. وتعطى حضوة خاصة عن غيرها. أما داخل موكب المحافظة. فإن هناك تقسيمات لمواكب أصغر. تبدأ أما بمناطق المحافظة. أو على أساس القبائل التي ينتسبون إليها. أو على أساس المهن التي يمتنونها. مثل موكب النجارين. الخبازين وهكذا.

يحمل كل موكب الراية الخاصة به. والتي تحمل اسم الموكب. وكذلك الأعلام ذات الألوان الكثيرة. ويتقدمها وجهاء المنطقة. أو السادة. وهم الذين يعود نسبهم إلى الرسول الأكرم (ص). ورجال الدين. أما بقية المشاركين في العزاء. فيتوزعون إلى مجاميع. تكتفي باللطم على الصدور. وهم يرددون أشعارا خاصة بالمناسبة. يتم خفيظتهم إياها من قبل المنشد والذي يسمى بـ"الرادود". فما أن تنتهي المجموعة الأولى من ترديد الأشعار الخاصة بها. حتى تبدأ الثانية وهكذا. وعلى نفس اللحن. أما المواكب الأخرى. فهي تكتفي باستخدام سلاسل حديدية صغيرة. تسمى بـ"الزنجيل". يقومون برفعها إلى الأعلى ثم يهوون بها على ظهورهم. على وقع صوت "الرادود". وأصوات الطبول.

بعد اجتياز الموكب للمنطقة المحيطة بحرم الحسين. يدخل بكامل عدده إلى الصحن الشريف. من باب مخصص للدخول. حيث يمكث هناك دقائق قليلة. لإفساح المجال لغيره من المواكب الأخرى. ثم يخرج من الباب المخصص للخروج. حيث ينتقل عبر المنطقة الواقعة بين الحرمين. والتي تبلغ مساحتها 350 مترا إلى ضريح العباس (ع) وصولا إلى الصحن. ثم المغادرة من باب الخروج. ويعود إلى المنطقة التي انطلق منها. وبذلك يكون قد أكمل دوره.

وكل هذه المواكب تستعرض وفق نظام دقيق. بحيث لا يكون هناك تعارض في حركتها. وتكون لها مواعيد محددة مسبقا. بحيث تلتزم بهذه المواعيد. وقد استمرت حركة المواكب هذا العام اعتبارا من يوم 13 صفر وحتى العشرين منه صباحا ومساءً. ◀

بسبب الإعياء الذي يلاقيه القادمين للمدينة في هذه المناسبة سيرا على الأقدام، فإن معظمهم ينزلون إلى النهر أما للاستحمام، أو وضع أرجلهم في الماء، أو للتوضوء، وبعد ذلك يتوجهون لزيارة المرقد، والذي لا يبعد أكثر من 500 متر، كما إن الكثير من الزوار يقومون بملء قناني صغيرة بهذا الماء، لإيصالها إلى من يوصيهم بذلك للتبرك، أو لطلب الشفاء.

بسبب الموروث الضخم الذي تكون لدى العوام من الناس، عبر التاريخ الطويل عن فاجعة كربلاء، فقد حبكت الكثير من القصص والأساطير والمعتقدات حول هذا النهر، ومنها قيام بعض الزوار بكتابة رسائل تتضمن عرضا لمشاكلهم الخاصة، أو لطلب حاجة، ويقومون برميها في هذا النهر، اعتقادا منهم بأنها سوف تصل إلى الإمام، لذلك كثيرا ما نجد ضفتي هذا الجدول مكتظة بالزوار، وخصوصا من النسوة اللاتي هن أكثر تقبلا لتلك المعتقدات، وتجد الأوراق البيضاء، والتي تحمل هذه الرسائل، تطفوا بوضوح على مياه هذا الجدول.

ماذا يجري داخل الضريحين

أما داخل ضريحي الإمام الحسين، والإمام العباس، واللذان لا تبعد المسافة بينهما عن 350م، فإن الأضرحة لا تغلق أبوابها أبدا، حيث تكون الصحون، والأواوين، والطارمات، والحرم،

الطعام لمنتسبي الموكب، كذلك يقدمونه للضيوف الذين يفدون إليهم، إما من مناطقهم، أو من مناطق أخرى. ولعل أشهر جهة تقدم الطعام في هذه المدينة، هي "مضيف العباس"، حيث يمتاز الطعام الذي يقدم بنكهة خاصة، لذلك فإنك ترى طوابيرا من الزوار وهم يقفون أملا في الحصول على حصتهم من الوجبة، والكثير منهم يسعى للحصول على ذلك من باب التبرك والثواب.

النهر المقدس

لعل من الطقوس التي يؤديها الزوار، وخصوصا القادمين سيرا على الأقدام، هي الاستحمام في الجدول، الذي يعتقد بأنه من بقايا نهر الفرات، والمسمى بـ"نهر العلقمي"، والذي جرت المعركة بالقرب منه، حيث يتأسون بما قام به الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الأنصاري، عند قيامه بزيارة قبر الحسين (ع) بالاعتسال من ماء الفرات، وكذلك من أجل أخذ قسط من الراحة، بعد قطع العشرات من الكيلو مترات مشيا على الأقدام، وللتخفيف من معاناة هذا السفر الطويل. يقع هذا الجدول في أحد المداخل المؤدية إلى ضريحي الحسين والعباس (ع)، في المنطقة المسماة بـ"باب بغداد"، وعلى الجهة اليمنى للقادم من العاصمة، حيث يقع مباشرة خلف المقام المسمى بمقام المهدي، ويتوسطه جسر صغير لعبور المشاة.

مواكب عزاء من خارج العراق

لا تقتصر مواكب العزاء على تلك العراقية فقط، حيث تدف إلى المدينة، وبهذه المناسبة فقط، مواكب عزاء من البحرين، عمان، إيران، الهند، وأفغانستان، ولعل أكثر المواكب الذي ينتظره أهل المدينة والزوار بفارغ الصبر، هو موكب العزاء المكون من الهنود المقيمين في بريطانيا، حيث إن لهم طريقة خاصة في التعبير عن التفجع بهذه المناسبة، كما إن هناك العديد من الزوار الذين يأتون من جميع البلدان الإسلامية لإحياء هذه المناسبة.

ماذا تقدم المدينة لزائريها

لا تستطيع أية مدينة، مهما كان حجم الخدمات التي يمكن أن تقدمها، ومستوى تلك الخدمات، من استيعاب هذا العدد الهائل من الزوار، لذلك فإن أهالي المدينة قد حولوا مدينتهم، إلى ما يشبه مجمع خدمات متكامل، لاستيعاب هؤلاء الزوار، فالشوارع تحولت إلى مطاعم، والأرصفة إلى فنادق، ووجبات الأكل والشراب تقدم على مدار 24 ساعة مجانا إلى الزوار، أما المواكب، والتي تكون لها أماكن مخصصة، فإن القائمين عليها قد استغلوا كل شبر من أرض المدينة، لإقامة مكان للموكب، والذي يكون عادة داخل ما يسمى بالتيكية، أو استغلال الفضاءات المفتوحة، حيث يقومون بتهيئة وجبات



The return of Hussein's family



Encampment for the visitors

"التشابه" تجسيد للتاريخ

سرادق لاستقبال الزوار المشاة

قطعات الجيش. والمتطوعين من الأهالي. ولعل من المفارقات في زيارة هذا العام، إن اجتماعات الكتل السياسية، لتشكل الحكومة، قد توقفت قرابة أسبوع، لحضور بعض أعضائها مراسيم الزيارة، كما إن الصابئة المندائيين، الذين يعيشون وسط وجنوب العراق، لم يحتفلوا بعيدهم الكبير والذي يسمى بعيد "البنجة"، والذي يستمر لمدة خمسة أيام، لأنه تزامن مع هذه الزيارة، حيث اقتصر احتفالاتهم على التعميد في مياه الأنهار فقط، وذلك مراعاة لمشاعر جيرانهم من المسلمين الشيعة، وفي هذا أكبر دليل على التعايش السلمي بين طوائف الشعب العراقي المختلفة، حين لا يتدخل في شؤونهم احد. ■

والبكاء، وخصوصا من النسوة في مشهد مؤثر للغاية، وسط انفجالات كبيرة، قد تنتهي بقيام الزائرين بالتعرض للجنود، خصوصا لفائدهم، حيث يصل الأمر إلى شتمه، والبصاق عليه، وأحيانا مهاجمته، كتعبير عن ازدرائهم له ولعمله الشنيع. بعد أن تكمل جميع المواكب مراسيم الزيارة، وكذلك الزائرين الآخرين، تبدأ الرحلة الأخرى لمغادرة المدينة، حيث تلجأ المواكب إلى الشاحنات لنقل المعدات الخاصة بهذه الزيارة، في حين يلجأ البقية إلى الشاحنات الصغيرة، بعد أن يكونوا قد امضوا على أقل تقدير، خمسة أيام في هذه المدينة الصغيرة، حيث كان في تأمين سلامتهم هذا العام، أكثر من ثمانية آلاف عنصر أمن، إضافة إلى بعض

كلها مليئة بالزائرين على آخرها، وتترك مسافة بسيطة لدخول موكب العزاء، التي تدخل من باب مخصص وتخرج من آخر، وقد تمكث مواكب العزاء عدة دقائق داخل الصحن، حيث ترتفع فيها حرارة اللطم، والضرب بالزناجيل على أشدها، وقد تلقى بعض الأهازيج الشعبية، والمسماة بـ"الهوسات"، والتي تمجد الإمام الحسين، وأخيه العباس (ع)، وتؤكد على استمرارية السير على نهجه، ولا يسمح لهذه المواكب بالوصول إلى الطارقات، أو الدخول داخل الحرم، حيث تكون مخصصة للزوار لتأدية مراسيم الزيارة، والدعاء، وقراءة القرآن الكريم، وللصلاة، ومن الصعوبة الوصول إلى الشباك، الذي يحيط بالصندوق الموضوع على قبر الإمامين، وكما اعتاد الزوار خلال الأيام الاعتيادية من الوصول إليه، ومسكه، وتقيله، وذلك لشدة الازدحام والتدافع، وعليه يكتفي أكثر الزوار بتأدية مراسيم الزيارة من خارج الضريح.

التشابه

لعل من هذه الشعائر التي تمارس في هذه المناسبة، وتستأثر بتعاطف واهتمام الزائرين، هي تجسيد المشاهد الخاصة بعودة السبايا من الشام، والتي تسمى بـ"التشابه"، حيث يتم تهيئة عدد من الخيول، والجمال، والهاودج، والمحمل، وكل ما يجسد ما تم فعلا أثناء الرحلة من دمشق إلى كربلاء، يتقدم هذا الركب عدد من الجنود بملابسهم وسيوفهم التقليدية، بعضهم يمتطي الخيل، والآخر يسيرون خلف السبايا من أهل البيت، يتقدم ركب أهل البيت الإمام علي بن الحسين، زين العابدين (ع)، ويده مقيدتان بالأغلال، وهو محاط بعدد من الأولاد، والبنات اللاتي وجوههن مغطاة، بعد ذلك تأتي الجمال، وعليها هاودج، يتقدمها الهودج الكبير الخاص بالسيدة زينب بنت علي أخت الحسين (رضي الله عنهم جميعا)، ثم بقية الهاودج، لزوجات وبنات الحسين وأشقاؤه وأصحابه، وتكون هذه محاطة بعدد من الجنود، يتقدمها شخص يرتدي الثياب الحمراء، لتمييزه عن بقية الجند، كرمز باعتباره قائدا لهم، وعادة ما يقوم بإعطائهم الأوامر عند مرور هذا المركب وسط جمهور الزائرين، يتعالى الصراخ، والنحيب،



Tea for the visitors

تقديم الشاي للزوار



The return of Hussein's family

"التشابه" تجسيد للتاريخ